بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الحادى عشر

سورة التوبة

من الآية ٩٣ حتى نهايتها الآية ١٢٩

وسورة يونس

وسورة هود

من بدايتها حتى الآية ٥

quranelkamil.com

obeikandl.com

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) ﴾

إنما طريق المؤاخذة على الإثم بالعقاب ينحصر هنا فى الأغنياء الذين رفضوا الخروج معك للجهاد، ورضوا بأن يبقوا مع المتخلفين من الشيوخ والنساء والأطفال، وأولئك طبع الله على قلوبهم فلا يعلمون جزاء ما يعملون. ثم ينبأ الله رسوله بأنه عندما يعودون إلى المدينة، سيجىء أولئك الأغنياء الأقوياء الأصحاء ليعتذروا عن عدم خروجهم، فقل لهم يا محمد لا تعتذروا، لن نصدقكم، فقد أخبرنا الله بأمركم، وسيرى الله أعمالكم فى المستقبل، ويراها رسوله والمؤمنون معه، ثم يوم الحساب، يأتيكم النبأ اليقين عن أعمالكم وجزائها.

***

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾

يخبر الله رسوله بأن أولئك الخوالف سيحلفون لكم لتصدقوا حججهم وأعذارهم، فاتركوهم وأعمالهم الدنيئة التى لن يفلح معها وعظ ولا تأنيب، ومأواهم جهنم بسبب تلك الأعمال، واعلموا أن الله لا يرضى عن القوم العاصين.

***

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) ﴾

﴿الأَعْرَابُ﴾ البدو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر، وليس فى ذلك حكم مطلق عنهم، كما تبين الآية التالية، ولا يعطى القرآن أوصافًا وأحكامًا مطلقة على عرق أو لون أو جنس، أو حتى أهل دين، ولا يفضل أحدًا على آخر إلا بالإيمان والعمل الصالح والتقوى ـ كما جاء فى سورة الحجرات ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [١٣]، وغيرها من الآيات والأحاديث ـ ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أقرب من سكان المدن بالجهل لبُعدهم عن العلماء، أو لبعدهم عن حياة المجتمعات وتهذيبها للنفوس، والله أعلم ﴿أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ من شرائع وأحكام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالصالحين والفاسقين من هؤلاء وهؤلاء ﴿حَكِيمٌ﴾ فى تصريفه أمور الكون. ومن هؤلاء الأعراب من يعتبر ما أنفقه معكم غرامة، يتربص بكم السوء ليسترد ما دفعه وأكثر، وهؤلاء هم من ستدور بهم الأحوال وينالون السوء الذى يتمنونه لكم، وأولئك هم المقصودون بـ ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون وما ينوون. وهناك من هؤلاء الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، وينفق فى سبيل الله تقربًا إليه وابتغاء مرضاته، وابتغاء استغفار الرسول (ﷺ) له، أولئك سيدخلهم الله فى رحمته، فهو الغفور الرحيم.

***

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾

تعددت اجتهادات المفسرين ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ ومن الأسلم أن نقول إن الرسول (ﷺ) شهد لعشرات من أصحابه وأهل بيته بالجنة، ودرجاتها العليا[1]، وفى مقدمة أولئك ﴿السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ﴾ أصحاب بيعة العقبة، وأهل بدر، وأصحاب بيعة الرضوان يوم صلح الحديبية، ثم تضيف الآية لهم من اتبعوهم بإحسان، من وقت نزولها وإلى

(١) الشائع المشهور أن الرسول (ﷺ) بشر عشرة من أصحابه بالجنة، طبقًا لما رواه سعيد بن زيد (رضي الله عنه)، وهو روى فقط عمن سمع الرسول (ﷺ) يبشرهم بالجنة، وهناك كثيرون آخرون، أولهم: السيدة خديجة (رضي الله عنها) التى بشرها ببيت فى الجنة من قصب، وآل ياسر وموعدهم الجنة، وشهداء المعارك التى خاضها المسلمون فى عصر النبوة ـ إلا اثنين أو ثلاثة قاتلوا حمية وعصبية وليس فى سبيل الله ـ وفاطمة الزهراء وأم حرام، والحسن والحسين، وبلال الحبشى، وهم يتجاوزون المائة.

يوم الحساب. أولئك رضى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم حتى أرضاهم، وهل بعد ذلك فوز؟ بل إنه ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: إن أولئك قد ﴿رَضُوا عَنْهُ﴾! فهل منا يا أخى القارئ من يفكر فى أن يذكر أن طلبته فى المدرسة أو الجامعة، أو مرضاه فى العيادة أو المستشفى، أو موظفيه فى شركته، أو أهل دائرته، أو مواطنيه، راضون عنه؟ فسبحان صاحب العزة والجلال، خالق النطف التى صار منها خصماء مبينون ـ كما جاء فى آخر سورة يس ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧)﴾ ـ ومنها فراعين ملعونون.

***

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾

حولكم من أعراب القبائل، ومن أهل المدينة منافقون ﴿مَرَدُوا﴾ قاموا على النفاق وأقاموا عليه واحترفوه، لا تعرفهم، سيعذبهم الله مرتين فى الدنيا، ثم مآلهم فى الآخرة إلى النار.

***

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)﴾

هناك آخرون اعترفوا بذنوبهم، لم يكابروا ولم يكذبوا، فقد خلطوا عملهم الصالح بعمل آخر سيئ، مثل التخلف عن غزوة تبوك، هؤلاء عسى الله أن يتقبل توبتهم؛ فهو الغفور الرحيم، ثم قال الله لرسوله (ﷺ): حتى تطهرهم من عملهم السيئ، خذ صدقة من أموالهم، تسمو بها أنفسهم عن متع الدنيا ومخاوفها، وجاء فى الحديث «الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» رواه الترمذى، وادع لهم، حتى تتنزل عليهم السكينة من ربهم السميع العليم.

***

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)﴾

وخافت الفئة التى خلطت عملاً طيبًا بآخر سيئ ألا تقبل توبتهم، فنزلت الآية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٠٤)﴾ وفى الحديث: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيبًا، فإن الله يقبلها بيمينه ثم يُربيها لصاحبها كما يُربى أحدُكم مهره حتى تكون مثل الجبل» رواه البخارى ومسلم. ثم تكرر أمر الله بالعمل، فلا قعود ولا تكاسل، ولا يأس ولا إهمال، ولا تهاون ولا تخلى عن المسئولية، مسئولية الخلافة ـ ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ومسئولية الرعاية «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته» رواه البخارى ـ فاعمل وعين الله ترعاك، واعمل ورسوله إمامك وأمامك بسنته وقدوته، واعمل والمؤمنون السابقون والتالون إلى يوم الدين يدعون لك ويشدون أزرك، اعمل لخيرك وخير أهلك وخير كل الناس فى الدنيا والآخرة، لا تكل ولا تمل، وستأتى يوم الحساب، فيرفعك عملك فى سبيله بإذن الله. وهناك فئة ثالثة من الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ﴿مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾ مؤخرون لحكم الله ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ حسب علمه وحكمته، وقال أكثر المفسرين: إنهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع.

***

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)﴾

لقد ظلت سورة التوبة تفضح المنافقين، وحين قرروا بناء مسجد ليثنى الناس عليهم ويثقوا فيهم ويستمعوا لأقوالهم، أليسوا ممن يعمر مساجد الله؟ أليسوا من أفاضل المسلمين؟ وما زال المنافقون الذين يكرهون الإسلام والمسلمين ولكن لا يستطيعون أن يجهروا بذلك، يتبعون تلك الحيلة، ويتكلمون باسم الإسلام والمسلمين؛ لينفثوا سمومهم وشرورهم بين حسنى النية والغافلين، فعلى المسلمين ألا ينخدعوا بتلك المساجد والمنابر.. والهيئات والمنظمات والمؤسسات، ويعلموا أن منها ما قام للإضرار بهم، وتفريق كلمتهم، وإعداداً وتجهيزاً لمن يحارب الله ورسوله، فعلى المسلمين الحذر واليقظة منها، وتجنبها، وأن يذهبوا لمساجد ومنابر التقوى، التى بها رجال يحبون أن يتطهروا، يحبون الله ورسوله، ويحبهم الله ورسوله.

ومسجد الضرار هو المسجد الذى بناه المنافقون بأمر أبى عامر الكافر الذى حزَّب الأحزاب لقتال رسول الله (ﷺ) والمسلمين، ثم لحق بالروم يطلب منهم العون على قتال رسول الله (ﷺ) والمسلمين.

***

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾

والفرق مطلق بين من بنوا مسجداً مثل مسجد قباء أو المسجد النبوى على تقوى من الله وطلب رضاه، وبين من أسس مسجد الضرار والكفر والتفريق بين المسلمين وجمع أعدائهم من المنافقين، فكأنما بناه على جانب ما جرفه الوادى، الموشك على الانهيار، وذلك مثل لمن يبنى بيتًا بلا قواعد، فما انتهى من عمله حتى انهار بنيانه فى نار جهنم، بظلمه. وسيستمر ذلك البنيان يشكل الريب فى قلوبهم، إلا أن تتقطع قلوبهم، بالندم والتوبة، أو بانتهاء أعمارهم، والله عليم حكيم.

***

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾

قال محمد الغزالى: [صورح المسلمون بأن نشر الرسالة يحتاج إلى بذل النفس والنفيس ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ إن هذا عقد أُخذ على أتباع موسى وعيسى ومحمد ـ صلى الله وسلم عليهم أجمعين ـ أن يُعلوا كلمة الله، ويخفضوا كلمة الكفر ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾] لأنهم يجاهدون فى سبيل الله فيقتلون أعداء الله ويستشهدون فى سبيله فوعدهم الله بالجنة. وقد أكد الله هذا الوعد الحق ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ كما أكده فى ﴿الْقُرْآنِ﴾، وجاء فى الحديث «الجهاد ماضٍ فى أمتى إلى يوم القيامة» رواه أبو داود، والجهاد هو بذل الطاقة فى سبيل الحق وضد الباطل، وهل خلت الدنيا من يوم خلقها الله من صراع بين الحق والباطل؟ على مستوى

النفس، والجماعة، والقوم، والدولة والأمة، والعالم كله؟ وجاء عن جعفر الصادق: [ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها].

***

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾.

وهذه صفات لأولئك المؤمنين ﴿التَّائِبُونَ﴾ عن الذنوب والمعاصى ﴿الْعَابِدُونَ﴾ لله وحده بلا شريك ﴿الْحَامِدُونَ﴾ فى السراء والضراء ﴿السَّائِحُونَ﴾ الضاربون فى الأرض تدبراً واعتباراً وطلبًا للعلم والعمل، وقيل الصائمون، حين لم يكن مسافر ذلك العصر يتمتع بالطعام والشراب، وجاء عن السيدة عائشة: سياحة هذه الأمة الصيام، وقال ابن مسعود: المقصود بالسائحين الصائمون، وقال مخلوف: [الصائمون أو الغزاة المجاهدون] ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ المصلون العاملون بما تأمرهم به الصلاة ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ تلك الصفة التى ارتبطت بخير أمة أخرجت للناس ـ فإذا انتفت، انتفت معها صفة الخيرية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ـ فمن يحرصون على الانتساب لخير أمة أخرجت للناس، فليأمروا بالمعروف ولينهوا عن المنكر ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ الذين يحترمون حدود الله ولا يتعدونها ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ برضا الله عنهم، حتى أرضاهم.

***

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾

ليس للنبى ولا للمؤمنين الحق فى أن يطلبوا المغفرة للمشركين حتى لو كانوا أقرب الناس إليهم من بعد ما أدركوا جحودهم الذى يجعلهم مستحقين نار جهنم. أما وعد إبراهيم لأبيه بأن يستغفر له الله، فكان رجاء أن يهديه فيقبله فى الصالحين، ولكن عندما تبين لإبراهيم أن أباه مُصرّ على الشرك، أدرك أنه عدو لله، فتبرأ منه وترك الاستغفار له ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ تعددت أقوال المفسرين فى كلمة أواه، فمنهم من قال الخاشع المتضرع، كثير التأوه من رقة

القلب، والخوف والشفقة، وقال الطبرى عن ابن مسعود هو الدَّعاء، أى كثير الدعاء ﴿حَلِيمٌ﴾ يمسك نفسه عند الإساءة له، فلا ينفعل ولا ينتقم، وإنما يعفو ويسامح.

***

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)﴾

نزلت الآية بعد أن خاف المسلمون من استغفارهم السابق للمشركين، فبين الله أنه ليس من سننه أن يترك من هداهم يتيهون فى الضلال، بل يبين لهم ما عليهم أن يجتنبوه ـ وهو القائل سبحانه وتعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ـ فهو يبين أوامره ونواهيه قبل أن يُحاسب عليها، والله عليم بكل شىء، من خواطر النفوس إلى نيات القلوب إلى أقوال وأعمال السر والجهر، وله ملك السموات والأرض، حياتكم وموتكم بيده وحده، وليس لكم ولى غيره.

***

﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾

﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ فسر ابن عباس التوبة على النبى (ﷺ) فى سياق قوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقال الشوكانى: [﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ فيما وقع منه (ﷺ) من الإذن فى التخلف (لمن طلب التخلف)، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين، وقد تكون التوبة منه تعالى على النبى (ﷺ) من باب أنه ترك ما هو الأولى والأليق فى قوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾]، وقال الزمخشرى [. . . ما من مؤمن إلا وهو محتاج التوبة والاستغفار، حتى النبى (ﷺ) والمهاجرون والأنصار، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء]. أما التوبة على المهاجرين والأنصار، فكانت عن تثاقل بعضهم فى الخروج، وفى سماع بعضهم للمنافقين، و﴿الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ هم الذين

تخلفوا عن القتال مع صدق إيمانهم، وهم كعب بن مالك، وهلال بن أميَّة، ومُرَارة بن الربيع، وجميعهم من الأنصار، ولم يأتوا النبى (ﷺ) يتحججون ويعتذرون عن عدم خروجهم معه ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ كناية عن شدة الضيق والحسرة؛ فقد انصرف رسول الله (ﷺ) والمسلمون عنهم وتجنبوهم، فندموا وتابوا توبةً خالصةً نصوحًا، وعلموا ﴿ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ تفضل عليهم بأن أنعم عليهم بالتوبة ليتوبوا إلى ربهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾.

يا أيها المؤمنون اثبتوا وتجلدوا وتمسكوا بتقوى الله، واحرصوا على الصمود مع الصادقين فى النوايا والأقوال والأفعال ولا تميلوا للمشركين والمنافقين ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ﴾ ليس لأهل المدينة ولا للأعراب الذين حولهم أن يتخلفوا عن مصاحبة رسول الله فى مثل تلك الغزوة ﴿ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ ولا يعملوا على حماية أنفسهم قبل حمايته؛ لأن ما سيصيبهم من ﴿ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ ﴾ ظمأ أو تعب أو جوع فى سبيل نصرة دين الله ﴿ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً ﴾ ولا يخطون خطوة، أو ينزلون موقعًا مما يغيظ الكفار ويسوؤهم، ولا ينتصرون على عدوهم انتصارًا بأى صورة وفى أى مجال ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ يثابون عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ كل نفقة ينفقها المؤمنون، قَلّتْ أو كثُرت، وكل عمل يؤدونه فى سبيل الله؛ صَغُر أو كَبُر، سينالون عليه جزاءً أحسن مما كانوا يعملون.

***

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾

لم يكن فى عصر الرسول (ﷺ) جيش نظامىّ، تقوم الدولة بتدريبه وإمداده بالسلاح، وتصرف معاشًا له. وفى الحقيقة، لم تظهر سمات الدولة الحديثة التى نعرفها اليوم إلا منذ قرنين أو ثلاثة، وكان لغزوة تبوك أهمية كبرى، فقد قتل والى الروم على البلقاء فى الشام رسول رسول الله (ﷺ) الذى ذهب ليسلمهم كتابه الذى يدعوهم به للإيمان[1]، فأرسل الرسول (ﷺ) جيشًا لغزوة مؤتة، ثم بعدها جاءت الرسول (ﷺ) أخبار بأن الروم يعدون العدة لاستئصال المسلمين فى المدينة، فطلب من الجميع الخروج معه، بعد أن ظهر أن جيش الروم فى مؤتة كان حوالى مائة ألف جندى. بعد رجوع الجيش من تبوك بدون حرب، صار لا بد من وضع قواعد، تناسب الزمان، للخروج. فهناك مهام متعددة على المسلمين القيام بها بجانب القتال، منها الفقه فى الدين، ومنها العمل الذى منه تأتى الأموال، للمعيشة، وللتعلم، وللإعداد للقتال، وقد جاء فى الحديث أن شابًا طلب من الرسول (ﷺ) الخروج للقتال، فسأله إن كان أبواه على قيد الحياة، فلما رد بالإيجاب، قال له الرسول (ﷺ): «ففيهما جاهد» رواه الترمذى. وقد تعددت أقوال المفسرين فى الآية وسبب نزولها، ولكنها أجمعت كلها على وجوب تقسيم المهام فى الدولة الإسلامية المبكرة، ما بين جهاد بالعلم والفقه واللسان، إلى جهاد بالسيف فى ساحة القتال، إلى جهاد بالعمل سعيًا وراء الأرزاق وبناء الدولة، إلى جهاد لبر الوالدين، وغير ذلك من فضائل أعمال الجهاد فى سبيل الله.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾

﴿ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ﴾ الذين يجاورونكم ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ قوة وشدة وعزمًا، وثقوا فى أن الله ناصر المتقين ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ من سور القرآن، قال المنافقون باستهزاء وسخرية: ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ هل أثر هذا الكلام فيكم وترك أثرًا فى

(١) وكان النبى (ﷺ) قد بعث الحارث بن عمير الأزدى برسالة إلى عظيم بُصْرَى، فقتله شرحبيل بن عمرو الغسانى ـ «الرحيق المختوم».

قلوبكم؟ والله ـ تعالى ـ يرد عليهم قائلاً: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ زادت إيمان المؤمنين وشرحت صدورهم واستبشروا الخير منها، أما المنافقون الذين فى قلوبهم مرض، فقد زادتهم خبثًا إلى خبثهم، أى كفرًا فوق كفرهم، وسيلقون الله كافرين.

***

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧)﴾

عجبًا لهؤلاء المنافقين، فإن الله فاضح نواياهم وما يقولون وما يفعلون إلى يوم الدين، حدث ذلك أيام التنزيل، وحدث بعده، وما زال يحدث حتى اليوم، فكل فتنة ابتدعها المنافقون، ظهر على الملأ وانكشف نفاقهم، لمن كانت لهم عيون يبصرون بها، وقلوب يفقهون بها، أفلا يخجلون؟! أفلا يتوبون إلى ربهم؟!، أولا يتذكرون ويتعظون؟ ثم استمرت الآيات تصف انحرافهم وجحودهم، فكلما نزلت سورةٌ من القرآن ـ وذلك فى عصر رسول الله (ﷺ)، أما فيما بعده، وليوم الدين، فتأويلها هو: وإذا تكشفت معانى سورة، وانطبقت على هؤلاء المنافقين، وما أكثر ما يحدث ذلك اليوم، ويعتبر به من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ـ راحوا يتغامزون ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ وأنتم تقولون ما تقولون؛ لهذا ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الحق والهداية فهم لا يفقهون.

***

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بشر مثلكم، لمن رأى الآية لكل العالمين، وعربى مثلكم لمن قال إن الآية موجهة للعرب فى وقت التنزيل، والجمع بين المعنيين واضح وصحيح ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يعز عليه، بمعنى يثقل ويشتد عليه أن تعيشوا فى شقاء الضلال فى الدنيا، وشقاء الحساب فى الآخرة ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم يخاطب الله رسوله مشفقًا عليه من الجاحدين ومواسيًا ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا عنك، فقل لنفسك وللناس أجمعين ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ هو حسبى ومولاى ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فهو نعم الوكيل، وقد فوضت أمرى إليه ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١)﴾

﴿الر﴾ راجع شرح الحروف المُقَطَّعة فى بداية سورة البقرة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ تلك آيات القرآن الحكيم.

* * *

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢)﴾

عـلام يتـعـجب الناس؟! أعلى أننا أنزلنا الوحى على رجلٍ يتكلم بلسـانهم فـينذرهم ويذكرهم بأن الله لم يخلقهم عبثًا، وأن لهم مهمة على الأرض، وأى مهمة! خلافة خالق الأكوان! وسيبعثون ليحاسبوا عليها فى الآخرة؟! وتطمئن الآية الذين آمنوا بأن لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ منزل صدق عند ربهم، والمقصود المقام الطيب الذى يناله الصادقون، بينما قال الكافرون ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ تكبرًا عن الإيمان برسالة محمد (ﷺ).

* * *

(*) إلا الآيات ٤٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦ فمدنية.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هذه الأيام لا يعلم حقيقتها إلا الله ـ فقد جاء﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، وجاء ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ـ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ﴾ قال محمد الغزالى: [ونحن مع التفويض فى فهم آيات الصفات، فإنا نوقن بأن الله استوى على عرشه استواءً يليق به، وشرع يدبر بحكمته شئون العالم الذى خلقه ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ من غير شريكَ ولا معين، ويستحيل أن يستعين الخالق بالمخلوق، والقادر بالعاجز، وعلى الناس كلهم أن يعرفوا هذه الحقيقة، فلا يتجهوا فى دعائهم إلى أحد سواه] ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ رد على القائلين بأن الأوثان شفعاؤنا عند الله ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ هو وحده ربكم، فلا تشركوا به من مخلوقاته، سواء كان مَلَكًا أو إنسانًا، أو جمادًا، أو نظريةً أو مذهبًا ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتذكرون أنكم تلجأون إليه وقت الحاجة وتنسون ما أشركتم به؟ أفلا تتذكرون شهادتكم الأولى حين خلقكم، كما بينتها الآية ١٧٢ من سورة الأعراف؟.

***

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

وعد الله أن يبعث البشر ليوم الحساب، فيعيد خلقهم بعد أن صاروا عظامًا وترابًا، فمن آمن وعمل صالحًا، يجازيه بالقسط، أى بالعدل ـ كما جاء فى سورة الأنبياء ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ثم يتفضل الله فيجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر؛ والسيئة بمثلها، إلا أن يغفر الله، وأن الله يغفر الذنوب جميعًا إلا أن يشرك به ـ أما الذين كفروا، فلهم شراب مغلى ـ ﴿كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ﴾ كما جاء فى الآية ٢٩ من سورة الكهف ـ وعذاب أليم بتكبرهم وجحودهم.

***

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ ضياءُ الشمس نور وحرارة وهى الأصل فيهما، أما نور القمر فلا حرارة فيه، وهو انعكاس لضياء الشمس ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ وقدر منازل القمر فى مساره، لتعرفوا أيام الشهور والسنين بها، فتستطيعوا بذلك ضبط أوقاتكم ومعاملاتكم وأموركم الشرعية، وقال الشوكانى: [وقيل إن الضمير راجع إلى كلٍّ من الشمس والقمر كما قيل فى ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]]، فمن الشمس نعرف أوقات اليوم، وحساب السنة الشمسية مما يفيد فى أمور الدين والدنيا ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ ما خلق الله ذلك النظام البديع المتقن عبثًا بدون هدف، وإنما لإقامة نظام كونى يدل ويشهد له بالوحدانية، ويدعو إليها، ويطيعه ويسجد له ويسبح بحمده ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ـ أولئك الذين ذكرتهم سورة آل عمران ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِى الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾.

***

﴿إِنَّ فِى اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ(٦)﴾

إن فى تعاقب الليل والنهار، وفى مخلوقات الله فى السموات والأرض، دلائل على قدرة الخالق، فجدير بنا أن نتدبر الآيات فى النطفة، التى تخرج من الرحم وليدًا، يشب ويقوى، ثم يهرم ويضعف، وربما يعود وليدًا فى عقله وقوته، ثم يُدفن تحت التراب، فلا يغتر بنفسه ولا بالدنيا. وأن نتفكر فى أمم الطيور فى الفضاء، والحيوانات على الأرض، والأسماك فى الأنهار والبحار، كيف تجد رزقها! وكيف تسكن وتأوى لمساكنها! وكيف تنام وتستيقظ! بل وكيف تعرف كيف تتناسل، وكيف تهرب من عدوها... وكيف... وكيف... وكيف...

وحق على التقى أن يعتبر ويحمد ربه على الماء الذى يشربه! والطعام الذى يأكله! وعلى أجهزته الداخلية وكيف تعمل... من جهاز للتنفس، وجهاز للهضم، وجهاز عصبى، وأجهزة للسمع والإبصار والإدراك، وأجهزة للمناعة، وغيرها... وكلها تعمل بدقة متناهية، وليس للإنسان دخل فى عملها، إلا ما قد يُلحقه بها من تعطيل وإفساد... من

يتدبر كل ذلك، فحتمًا سيعرف أن هناك قوة عظمى هائلة، خَيِّرة، خلقت كل ذلك، وتحفظه وترعاه. . . وتلك القوة خلقته على فطرة طيبة، وأشهدته على ربوبيتها، وعلى وجوب طاعتها، وأعلمته أنه سيعود إليها لتحاسبه، وفق موازين الحق؛ ليخلد فيما تسمو إليه نفسه، أو يهبط لما دسته عليه نفسه.

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾.

أما الذين لا يرجون لقاءنا، بما رضوه من الحياة الدنيا، واكتفوا بها حتى غفلوا عن آياتنا، فأولئك عاقبتهم النار بما كانوا يفعلون.

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾

إن كل من آمن وصدق إيمانه بفعل الصالحات، يهديه الله بأن يزيد فقهه في الدين، ويريه الحق حقّا ويرزقه اتباعه، ويريه الباطل باطلاً ويرزقه اجتنابه، وييسره لليسرى ـ كما جاء في سورة الليل ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧)﴾ ـ ومثواه جنات النعيم، تجرى من تحته الأنهار، لا يقول ولا يسمع فيها لغو الكلام ولا تأثيمه، وإنما يسبح الله، ويحييه ربه بالسلام، وآخر كلامه تحميد الله على نعمائه.

* * *

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)﴾

دائمًا يستعجل الكفار وعيد أنبيائهم تكبرًا وتحديًا وعنادًا، وربما سخرية واستهزاءً ـ مثلما جاء في سورة الأعراف؛ إذ قالت عاد لنبيهم هود (عليه السلام): ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٧٠)﴾، وقالت ثمود لنبيهم صالح (عليه السلام)

﴿ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) ﴾ ـ ولو أجاب الله ما يستعجل به الناس لأنفسهم من الشر مثل استعجالهم للخير لهلكوا جميعًا، وقيل لو استعجل الله استجابته الناس فيما يرونه خيرًا وهو شر، لهلكوا جميعًا، ولكن رحمة الله واسعة، وهو يمهل هؤلاء الذين لا يرجون لقاءه حتى يتوبوا، فإذا أصروا على جحودهم يتركهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يعمون عن الرشد فيتحيرون ويترددون. وهناك من الناس من إذا أصابهم الضرر، رجعوا لإلههم الحق، يستغيثون به راقدين أو قاعدين أو قائمين، أى فى كل حال وحين، فإذا ما استجاب ربهم لهم فرفع البلاء، نسوا فضل الله وغفلوا عن الشكر، وكأن شيئًا لم يكن، هؤلاء هم المسرفون على أنفسهم فى الكفر، والذين زينت لهم أنفسهم غفلتهم.

***

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾

يجدر بأولى الألباب أن يعتبروا من هلاك الأمم السابقة بسبب جحودها بالدلائل الواضحات التى جاءت بها الرسل، فا عتبروا يا أهل مكة ويابلاد العرب، ويا كل البشر ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ يا أمة محمد ويا كل البشر، لقد جعلناكم خلفاء للأمم السابقة، فماذا ستصنعون؟

***

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾

رفض أهل مكة القرآن لما جاء به من إصلاح لعقيدتهم الباطلة، وبالتالى إصلاح لشرائعهم وطريقة حياتهم، وكانوا أحيانًا يثوبون لرشدهم ويتوقفون عن تكذيب محمد (ﷺ) فى أنه رسول الله إليهم لما عرفوه عنه من أنه لا يقول إلا الصدق، أو كانوا يتحججون ويتعنتون فيطلبون منه تغيير القرآن أو تبديله ليتفق مع هواهم، فأمره الله أن يجيبهم: ليس من حقى ذلك، إنما هو وحىٌ من الله لا أملك إلا أن أتبعه ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ

عَظِيمٍ﴾ ولو أراد الله ألا أتلوه عليكم لنفذت مشيئته، ألا ترون أنى قد عشت بينكم أربعين سنة من قبل، ولم أتدخل فى شئون دينكم أو أتطلع لإمارتكم، مكثت بينكم أربعين عامًا لا أقرأ ولا أكتب، وأنتم تشهدون لى بالصدق والأمانة ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

* * *

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)﴾

كيف آتى بقرآن غير هذا القرآن إرضاءً لكم، فليس هناك جرم أظلم من افتراء الكذب على الله، أو من تكذيب آياته ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ثم أنتم يا مشركى مكة تعبدون الأصنام التى لا تضر ولا تنفع وتقولون ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ قل لهم يا محمد: هل تخبرون الله بشفعاء لا يعلمهم فى السماوات والأرض؟ تنزه الله عن ذلك.

* * *

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠)﴾

كان الناس جميعهم بمقتضى الفطرة أمة إنسانية واحدة مؤمنة بالله الواحد الأحد، فاختلفوا على الحق ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهى إمهالهم ليتوبوا، وتأخير الحكم والجزاء بينهم إلى يوم القيامة، لأنزل حكمه عليهم ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ مثلهم مثل الجاحدين الذين كفروا بآيات الله العامة والخاصة، يطلبون آية تعنتًا وتحديًا وليس سعيًا وراء اليقين ـ كما بينت ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾ [الأنعام]، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾ [الحجر]، ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢)﴾ [القمر]، ومثلهم مثل فرعون وملئه، وبنى إسرائيل الذين جحدوا آيات موسى (ﷺ)، وبنى إسرائيل الذين جحدوا آيات عيسى (ﷺ) ـ ورغم كل هذا يأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله (ﷺ) أن يقول لهم ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي

مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ فيمد لهم الحليم الحكيم الفرصة والمهلة ليتوبوا وينوبوا، وإلا فلهم عذاب عظيم.

* * *

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) ﴾

وإذا رفع الله البلاء عن الناس ﴿ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ ينسون الرحمة ويقابلونها بالإمعان فى الكفر بآيات الله، فقل لهم يا محمد: ﴿ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ تدبير الله أسرع من تدبيركم، ورسله يسجلون مكركم وأفعالكم.

* * *

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾

فى هذه الآية تمثيل لحال النفس البشرية بصفة عامة؛ تلجأ عند الزلزلة الشديدة، وتنفض إلحادها أو شركاءها، وتستيقظ من غفلتها، حتى إذا ذهب العسر وجاء اليسر، تفرح، وكثيراً ما تطغى عند ذلك ـ ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) ﴾ [المعارج]، ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق] ـ إلا من رحم الله.

* * *

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾

إنما الحياة الدنيا التى تغرون أنفسكم بها، إنما هى مثل النبات الذى تحييه أمطار الله من السماء، وقوانينه فى الأرض والزرع، فإذا ظن أصحاب النبات أن ذلك بسبب علمهم

وعملهم، فاستغنوا عن الله وشرعه، دمر الله مزارعهم ليلاً أو نهاراً، إن عاجلاً أو آجلاً، فأصبحت خبر كان، وكذلك يبين الله ﴿الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

* * *

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾

يبين لنا الله كل هذه الآيات ليدلنا ويدعونا إلى ﴿دَارِ السَّلَامِ﴾ وهى الجنة؛ حيث لا حرب ولا نزاع، لا حسد ولا تباغض، لا طمع ولا أثرة، لا كذب ولا لغو، إلا قيلاً سلامًا سلامًا فيهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم الذى يصل بالذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى الجنة، وبينت آيات أخرى أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يهدى من يؤمن به إلى الصراط المستقيم، فيزيد إيمانه ويثبته، ويهديه للعمل الصالح. قال الزمخشرى: [﴿يَهْدِي﴾ يوفق ﴿مَن يَشَاءُ﴾ وهم الذين علم أن اللطف يجدى معهم؛ لأن مشيئته تابعة لحكمته، ومعناه: يدعو العباد كلهم إلى دار السلام، ولا يدخلها إلا المهديون] ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ فى الإيمان والعمل الصالح، فهم يعبدون الله كأنهم يرونه ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ تعددت معانى الحسنى فى آيات القرآن، فتعنى العاقبة الحسنى، والمنزلة الحسنى، والخير، ووعد الله بالجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ رضا الله الذى لا يسخط بعده، وقيل النظر لوجهه الكريم ﴿لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ غُبار معه سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ولا هوان ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

* * *

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)﴾

أما الذين ﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من المشركين كما تبين الآية التالية لها، فسينالهم سيئة مثلها ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يعلوهم الذل والهوان ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ لا يعصمهم أحد من عقاب الله ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ كأنما غطت وجوههم ظلمة من ظلم الليل، كما جاء فى الحديث «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» رواه مسلم، أولئك أهل النار الخالدون فيها.

* * *

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾

وفى أحد مشاهد يوم الحشر يقول الله للمشركين ﴿ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ قفوا أنتم ومن اتخذتموهم شركاء من دون الله ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ فرقنا بينهم وبين شركائهم ـ وفى سورة البقرة يظهر هذا الموقف جليّا ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ ـ ﴿ قَالَ شُرَكَاؤُهُم ﴾ متبرئين منهم ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ فأنكروا عليهم تلك العبادة المزعومة، سواء لأنهم لم يطلبوها ولم يرضوا عنها ولم يحسوا بها، أو لأن هؤلاء المشركين إنما كانوا يعبدون أهواءهم وما زيفته لهم، كما جاء فى سورة الجاثية ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ [٢٣]، ثم تلجأ تلك الآلهة المزعومة إلى الله تطلب شهادته على غفلتها عن تلك العبادة الزائفة ﴿ هُنَالِكَ ﴾ فى ذلك الموقف، ستعلم كل نفس ما قدمت فى الدنيا من خير وشر، عندما تعود إلى الله الحق، والرب الحق، والمولى الحق، وضاع وبطل كل ما زعمه المشركون من شركاء وشفعاء وموالٍ.

***

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾

قل يا محمد للمشركين حتى يستفيقوا ويتذكروا: ﴿ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الذى يُسقط الأمطار ثم بإذنه ينمو النبات؟ ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ تأمل يا أخى القارئ دقة اللفظ وعمق المعنى: من يملك السمع والأبصار؟ ربما تأتى الإجابة: كل الناس تملك السمع والأبصار، فكلهم مخلوق بعينين وبأذنين. ولكن، هل كل من له أذنان يسمع؟ وهل كل من له عينان يبصر؟ إذًا هناك قانون آخر غير الظاهر لبنى البشر، يجعل أذنًا تسمع وأخرى لا تسمع، وعينًا ترى وأخرى لا ترى، كذلك يتفاوت ويتباين السمع ويتفاوت

ويتباين الإبصار، فما تلك الآليات والأجهزة إلا مخلوقات تعمل بقدرة الله وسننه فى الكون، أى ما نطلق عليه نحن القوانين، أو قوانين الطبيعة، وما إلى ذلك، ونفرح باكتشافها، وربما نطغى ونتكبر ونتجبر بها، ولا ننسبها لصاحبها، ونقول: إنها قوانين العلم، وليس هناك إلا العلم، وأننا أبناء الطبيعة ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ﴾ يخلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، ويقبض روحه ليعود عدمًا ميتًا كما كان قبل خلقه، أو بإخراج المؤمن من الكافر، وإخراج الكافر من المؤمن ويحيى الأرض الميتة، ويميت الأرض الحية ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ من يدبر أمر الكون بمن فيه؟ ومن عجيب الأمر أن ردهم الفورى هو الله، فقل لهم على الفور: ألا يستحق الله أن تطيعوه ولا تعصوه؟ ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾ فإذا كان الله هو الذى خلقكم، ويعطيكم سمعكم وأبصاركم، وبيده الموت والحياة المادية والمعنوية، فلماذا بعد اعترافكم بكل ذلك تريدون إخراج الله وشرعه من منهاج حياتكم؟ فهل رفض الحق إلا ضلال؟ ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ كيف تُعرضونَ عن الله؟ وبسبب هذا الإعراض الجاحد صدقت كلمة ربك على الذين عصوا بأنهم لا ولن يؤمنوا.

***

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّى إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾

ثم سلهم يا محمد عن الشركاء الذين اتخذوهم، سواء كانوا ملائكة أو بشرًا أو أصنامًا؛ أو غير ذلك من أفكار ونظريات وأهواء، هل يستطيع أىّ منهم أن يخلق ويرزق ويهدى، ويميت ويحى؟ قل الله يفعل، فكيف تنصرفون عن الحق إلى الضلال؟ أمن الحق أن نسوى بين من يملك الهداية ومن لا يملكها إلا إذا تفضل الله عليه بها؟ فكيف تحكمون بهذا الباطل الذى لا تقبله العقول؟ وما تتبعون فى منهاجكم الدنيوى إلا ظنونًا لا تغنى عن الحق شيئًا، والله عليم بما تفعلون.

***

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) ﴾

وما كان يمكن لمحمد أو غيره من البشر أن يأتى بهذا القرآن، ببيانه ووجوه إعجازه المتعددة، من إخبار بالغيب، المكانى والزمانى، بمنهاجه الفريد فى مخاطبة العقل والضمير، ومناجاة النفوس الزكية، ومن سبره لأغوار النفس الإنسانية وما يعتمل فيها، لعقيدته وشريعته التى تطمئن لهما وبهما القلوب والفطر السليمة والعقول والمدارك، لإشاراته العلمية التى تتكشف بتقدم العلم مصداقًا لقوله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وهو كتاب يصدق على الكتب السماوية السابقة له، ويفصل ما يحتاجه البشر فى أداء رسالتهم، ويوجههم لما يرضى ربهم ويرضيهم، وإن أصررتم على نكرانكم وجحودكم، فأتوا بسورة مثله، واستعينوا بكل أعوانكم إن كنتم صادقين ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ سارعوا إلى تكذيب القرآن دون أن يعلموه ويعلموا تأويله. قال الطبرى: [التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه مما أنزل الله عليك فى هذا القرآن من وعيدهم على كفرهم بربهم، ولما يأتهم بعد بيان ما يؤول إليه ذلك الوعيد الذى توعدهم الله فى هذا القرآن، كذلك كذب الأمم التى قبلهم، فانظر يا محمد كيف كان عقبى كُفر من كفر بالله، ألم نهلك بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالغرق؟].

***

﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾

يخبر الله رسوله أن من الذين يكذبونه صنفين: صنف يؤمن بأنك صادق وبأن القرآن تنزيل من رب العالمين، ولكن يجحد ذلك حقدًا وغيرة وحسدًا أن ينزل الله من فضله عليك وعلى أمتك، والصنف الثانى يرفض أن يؤمن ببعث وحساب، ورسل وكتب منزلة من رب العالمين، ليتبع هواه فى الدنيا، والله أعلم بأولئك المفسدين، فإن كذبوك فقل لهم: إن الله سيحاسبنى على عملى، وسيحاسبكم على أعمالكم، أنتم أبرياء مما أعمل وأنا برىء مما

تعملون، وهناك من المكذبين من وهبهم الله نعمة السمع فهم يستمعون إليك، ومنهم من وهبه الله نعمة البصر فينظرون إليك، ولكن عقولهم وقلوبهم ترفض رسالتك، فلست مسئولاً عنهم، واعلموا أن الله سيجازى الناس على أعمالهم، وهو الحكم العدل الذى لا يظلم، ولكن الناس هى التى تظلم أنفسها بتعطيل ما أتاها الله من فطر وعقول ومدارك.

* * *

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) ﴾

وأنذرهم يوم الحشر، حين يرون أنهم لم يعيشوا فى الأرض ﴿ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ﴾ وهم يوم الحشر ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ هل ذلك التعارف كان فى الدنيا، التى أصبحوا يوم الحساب يرونها مجرد ساعة ومرت؟ فكأن الدنيا كانت قصيرة جدّا، ساعة، مضت فى مجرد أن يتعرف الناس على بعضهم البعض، هذا مؤمن وهذا كافر، هذا مشرك وهذا منافق، وهذا شهيد، هذا ملحد وهذا صدّيق، ومثل ذلك. وإذا كان التعارف فى الآخرة، فربما كان المقصود منه مشاهد يوم القيامة التى يتميز فيها الذين آمنوا وعملوا الصالحات عن الذين كفروا وأشركوا وعملوا السيئات ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ تلك هى الخسارة النهائية لأولئك الذين رفضوا الهداية فى حياتهم الدنيا ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ وإما أن نجعلك ترى ما أعددنا لهم فى الآخرة، وتحتمل الآية فى الدنيا أيضًا[1]، أو نتوفينك قبل ذلك، ولكن فى الحالتين بعثهم ومرجعهم إلى الله، الذى يشهد على أعمالهم.

* * *

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) ﴾

أرسل الله لكل أمة رسولاً يدعوهم إلى عبادة الواحد الأحد، فإذا جاءهم رسولهم ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ حكم الله بينهم بالعدل بعد أن أظهر بيناته، ولم يعد لهم عذر، وقال

(١) ربما كان المقصود بذلك ما شاهده الرسول (ﷺ) من أحوال الناس فى الآخرة فى معراجه أو بواسطة الوحى، ورواه للصحابة ولكل المؤمنين من بعدهم، والله أعلم.

الزمخشرى: [. . . فكذبوه ولم يتبعوه. . . فأنجى الرسول وعذب المكذبين] ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ ثم يعود النص لقول المكذبين فى كل زمان ومكان ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فقل لهم يا محمد: إنى لا أملك لنفسى ضرّا ولا نفعًا لأن الأمر كله بيد الله، ولكل أمة نهاية لا يعرفها إلا الله، فإذا حانت هذه النهاية لم يتأخروا أو يتقدموا عنها ساعة من الزمن.

* * *

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)﴾

فيم استعجالكم أيها الكافرون عذاب الله؟ وماذا ستفعلون إن أتاكم بالليل أو النهار؟ ثم إذا وقع بكم عذاب الاستئصال فى الدنيا، أو عذاب الحساب فى الآخرة آمنتم حين لا ينفع نفسًا إيمانها، فهذا ما كنتم به تستعجلون، ويومئذ يقال للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تفعلون.

* * *

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥٤)﴾

ويسألُك يا محمد المكذبون للبعث والحساب: أحق ما تقوله يا محمد؟ فقل لهم نعم وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين الله عن بعثكم وحسابكم ولو ملكت النفس الظالمة كل ما فى الأرض لقدمته فداء لها يوم الحساب ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ أخبر الظالمون ندامتهم على ما فعلوه فى الدنيا حين ﴿رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وحكم بين الظالمين بالعدل ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

* * *

﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾

لله ما فى السماوات والأرض، فمن يريد من خيراتها ومتعها الحقة الدائمة فليطرق باب مالكها، صاحب الوعد الحق، ولكن أكثر الناس يتبعون الظن، ولا يغنى الظن عن حق الله شيئًا، وفى يده وحده حياتكم ومماتكم، ثم رجوعكم إليه.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾

الخطاب للناس جميعًا، يهديهم لرسالة خاتم النبيين، التى فيها شفاء للصدور ورحمة من هلكة الدنيا وتسلطها، ومن ينل فضل الله ورحمته فقد فاز بخير مما يجمع الناس من متع الدنيا الزائلة.

* * *

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠) ﴾.

أخبرونى أيها المشركون عندما أنزل الله إليكم رزقًا حلالاً طيبًا، فرُحْتُم تُشَرِّعونَ، تُحللونَ وتُحرمونَ بغير علم، قل لهم يا محمد: هل أذنَ الله لكم بالفتوى بذلك أم أنكم ﴿ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾؟ وماذا يتوقع ﴿ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قال البيضاوى: [فى إبهام الوعيد (أى فى عدم ذكر إجابة السؤال) تهديد عظيم] ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴾ فقد وهبهم الله الفطرة والعقل والمدارك، ثم أنزل الكتب وأرسل الرسل، كى ينجوا من ضلال الدنيا وعذاب الآخرة، ويهتدوا إلى الصراط المستقيم، الذى به يدخلون جنة النعيم، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

* * *

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾

ما تكون يا محمد فى أىّ أمر من أمور الدنيا، والخطاب له (ﷺ) والمراد كل المؤمنين وكل البشر ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ وعندما تقرأ القرآن، أو تعمل أى عمل، أنت والمؤمنون، والناس عمومًا ﴿إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ إلا كنا شهداء نسمع ونرى ونسجل ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ عندما تبدأون فيه، فإن الله لا يغيب عن علمه ولا يخرج عن مشيئته مثقال ذرة، ولا أصغر ولا أكبر منها، فى الأرض أو فى السماء ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك].

* * *

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾

﴿أَلا﴾ اعرفوا أيها الناس أن الموالين لله المطيعين له والمحبين لجلاله وجماله ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فى الدنيا ولا فى الآخرة يوم الفزع الأكبر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ صدقوا إيمانهم بالعمل، فهم يسعون ويسمون إلى رضا الله، ويخافون غضبه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ بالهدى والعزة والكرامة فى الدنيا، وفى الآخرة بالجنة ونعيمها ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ وهل هناك فوز أعظم من ذلك؟.

* * *

﴿وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)﴾

لا تحزن بما يقول المشركون؛ فإن ﴿الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فمن يسعى وراء العزة فليطلبها عند العزيز، واهبها ومانعها، ـ وكذا من يسعى وراء الرزق فليطلبه من الرازق الرزَّاق، واهب الرزق ومانعه، وإلا ضل سعيه وخاب أمره ـ فالله هو ﴿السَّمِيعُ﴾ لكل ما يقولون وهو ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما فى صدورهم، وبأقوالهم وأفعالهم، سواء فى السر أو العلن، ولله وحده ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ فكيف تريدون مما فيها من غيره ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ وما سعى الناس خارج المنهاج الربانى إلا سعيًا وراه

ظنون ما أنزل الله بها من سلطان ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ يتوهمون باطلاً يزينونه لأنفسهم، فهو ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ فلماذا لا تطيعونه وتتبعون منهاجه لكم فيما ترك لكم الخيار فيه، كما تطيعونه فيما سخره لكم من جعله الليل لراحتكم وسكنكم، والنهار مبصراً لتسعوا وراء مصالحكم ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

* * *

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِىُّ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ(٧٠) ﴾

خلق الله الناس أزواجًا ليسكنوا إلى بعضهم البعض، وحتى يتراحم الناس بانتسابهم لبعضهم البعض، وخلق الذرية حتى تشتد أواصر الزوجية والعائلة، وحتى يعطف الأقوياء على الضعفاء ويكفلوهم، أى الآباء على أبنائهم الصغار، ثم الأبناء حين يشتد عودهم على الآباء والأجداد حين يأخذهم الكبر، والله غنى عن كل ذلك؛ فهل عندكم أيها المفترون على الله سلطان أو حجة أو دليل على أن الله اتخذ ولدًا؟ إنكم بهذا الافتراء لن تفلحوا، أما حياتكم الدنيا وما تستمتعون به فيها، وما تستفيدونه من وراء هذا الكذب، سواء كان عصبية أو سلطة أوجاهًا، أو مالاً، أو شهرة، فهو زائل، ثم إنكم إلينا راجعون؛ حيث العذاب الشديد للكافرين.

* * *

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَىَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾

اتل لقومك، ولكل من يبلغه القرآن، يا محمد قصة نوح لما شعر بأن قومه يستثقلون دعوته إلى الله، فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ولم يؤمن معه إلا قليل، واستاء قومه من نصحه لهم، فقال لهم: وكيلى هو الله، لا أتوكل على أحدٍ سواه ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ

﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ اعزموا على الكيد لى مع شركائكم الذين اتخذتموهم من دون الله ﴿ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ ولا يلتبس عليكم أمركم ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ افعلوا ما تريدونه فىَّ ﴿وَلا تُنظِرُونِ﴾ ولا تُمهلونى إن ظننتم أنكم تملكون إيذائى، فالله خيرٌ حافظًا، وإن أصررتم على الإعراض عن دعوتى فلن يضيرنى ذلك، فلم أقصد الأجر منكم؛ بل أجرى على الله، وقد أمرنى بأن أسلِمَ له وجهى وأن أكون من المسلمين.

***

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)﴾

رغم كل هذه السنين التى لبثها رسول الله نوح (ﷺ) فى دعوته قومه، فقد أصروا على الكفر، فأرسل الله عليهم الطوفان فغرقوا جميعًا إلا مَنْ ركب مع نوح (ﷺ) السفينة؛ فخلفوا قومهم، وانظر يا محمد كيف كان مصير الذين أنذرهم نوح فلم يعتبروا. ثم بعث الله من بعد نوح ﴿رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب، فجاءوهم بالآيات الدالة على صدقهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ فكأن النص يتحدث عن صنف من الناس لا يتغير، يتكبر ويجحد، وكما كذَّب أيام نوح (ﷺ)، فإنه يكذِّب كل رسول، وكذلك كذَّب خاتم النبيين، فلا جدوى ولا فائدة لمن ختم الله على قلبهم بسبب جحودهم ونكرانهم، وعدوانهم على الناس وعلى الحق ـ وأولئك الذين قالت عنهم سورة الأعراف ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [١٤٦].

***

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِى الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)﴾

ثم أرسلنا من بعد هؤلاء الرسل موسى وأخاه هارون إلى فرعون مصر ﴿ وَمَلَئِهِ ﴾ وبطانته ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ الدامغة، ومنها الحجة والمنطق، ثم يده وعصاه، ثم بقية الآيات المذكورة فى سورة الأعراف، فماذا كانت النتيجة؟ لقد تكبروا وقالوا عن موسى ساحر، ثم اتهموه بأنه إنما جاء ليضلهم عن هدى آبائهم، ويتكبر عليهم هو وأخوه.

* * *

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) ﴾

تروى هذه الآيات لنا أحد مشاهد صراع الحق والباطل، حين دعا فرعون السحرة حتى يحبطوا ما زعم أنه سحر موسى (عليه السلام)، فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما تريدون، فألقوا حبالهم وعصيهم حتى استرهبوا الناظرين، فقال لهم موسى: ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ عملكم هذا هو السحر، وإن الله سيكشفه ويُبطله؛ لأن الله لا يصلح للمفسدين عملاً ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ ويثبت الله الحق بأمره مهما كره المجرمون.

* * *

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾

لم يؤمن بموسى (عليه السلام) إلا بعض أبناء بنى إسرائيل خوفًا مما يفعله بهم فرعون وبطانته ـ وآمن به من المصريين: السحرة، وزوجة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وهذا يفتح الباب لإيمان عدد معتبر من المصريين[1] ـ ففرعون كان مستعليًا على الخلق بأساليب الدنيا التى جعلت علوه فى الأرض، وكان مسرفًا فى الظلم، فلما رأى موسى خوفهم من فرعون وجنوده قال لهم: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ ما دمتم قد آمنتم بالله فاجعلوا تُكالكم عليه وحده إن كنتم أسلمتم وجوهكم له، فقالوا ﴿ عَلَى اللَّهِ

(١) ذكر العهد القديم أن يوشع بن نون، الذى ربما كان هو فتى موسى الذى جاء ذكره فى القرآن، هو حفيد يوسف (عليه السلام) من زوجته المصرية، والله أعلم.

﴿ تَوَكَّلْنَا ﴾ ثم دعوا الله أن ينجيهم من فرعون وبطانته؛ لئلا يكون كل جانب فتنة للثانى ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾

وأوحى الله إلى موسى وهارون أن يتخذا بمصر بيوتًا للمؤمنين، يأتون إليها للصلاة، وأن يبشر المؤمنين بحسن العاقبة، ودعا موسى ربه: ربنا إنك آتيت فرعون وبطانته متع الدنيا من جاه وسلطان ومال ﴿ لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴾ فلم يقابلوا نعمك بالحمد والشكر، بل بالجحود والإضلال، فهم ذلك الصنف من الناس الذين قالت عنهم سورة العلق ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾ أهلكها وأتلفها وأذهبها ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ اطبع عليها حتى يتمادوا فى البطر والطغيان، ثم خذهم أخذ عزيز مقتدر، فلا يؤمنوا حتى تُنزل بهم العذاب الأليم، فقال تعالى: قد استجبت لكما ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ فاثبتا واستمرا على طريق الهدى ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾

خرج موسى (ﷺ) ومن آمن به من مصر هربًا بدينهم، واجتازوا البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه فانفلق، أما فرعون وجنوده الذين اتبعوهم، فقد أمر الله البحر فانطبق عليهم، وعندما أدرك فرعون الغرق أعلن نادمًا: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فقال الله ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ الآن تؤمن حين أيقنت بالهلاك وقد كنت من قبل من المفسدين ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ

آيَةً ﴾ سَنُهْلِكُكَ ونُخرج جثتك من البحر[1] لتكون عظة وعبرة للذين عبدوك من دون الله وغفلوا عن عبادة الله الواحد الأحد، ولكل من تسول له نفسه التأله على الخلق والتكبر فى الأرض، من بعدك وحتى يوم الحساب.

* * *

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) ﴾

ولقد أعددنا لبنى إسرائيل مدخل صدق، بإرسالنا موسى (ﷺ) إليهم، وأنزلنا عليهم المن والسلوى، ثم جاءهم العلم، فأنزلنا التوراة على موسى لهدايتهم، فإذا بالتصارع والتشاحن على الرئاسة وحطام الدنيا يدب بينهم، والله يحكم بينهم يوم الحساب فيما اختلفوا فيه.

* * *

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٩٧) ﴾

الكلام هنا رغم أنه موجه للرسول (ﷺ)، إلا أنه يقصد من كانوا فى ريب وشك من أن القرآن كلام الله، وقال الزمخشرى: [عن ابن عباس رضى الله عنه: لا والله ما شك طرفة عين ولا سأل أحدًا منهم. وقيل خوطب رسول الله (ﷺ) والمراد خطاب أمته] ﴿ فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ ﴾ قل لمن يشك يا محمد: اسألوا الذين يقرأون الكتاب عما لديهم عن قصة موسى وفرعون، وما حدث لبنى إسرائيل؛ لأن الذى جاءك يا محمد هو ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ فاطمئن وطمئنهم، ويجب ألا يكونوا ﴿ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ المرتابين فى القرآن ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وفى هذا استمرار لخطاب من يشك فى القرآن أو فى رسالة محمد (ﷺ) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ إن الذين استحقوا كلمة الله

(١) هناك اختلاف بين مؤرخى مصر القديمة، من هو فرعون الخروج الذى بقيت جثته بعده. فقال بعضهم: رمسيس الثانى، وقال آخرون: هو مرنبتاح، وينفى الباحث فى تاريخ مصر الفرعونية بسام الشماع كليهما، والله أعلم.

عليهم المؤذنة بالعذاب الأليم لا ولن يؤمنوا أبدًا حتى لو أنزلنا عليهم كل الآيات، إلا إذا عاينوا العذاب عيانًا بيانًا، عندئذ سيدركون الحق؛ حيث لا ينفع الندم والتوبة.

* * *

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾

هذه الآية لحث أهل مكة وغيرها من القرى على الإيمان بالله ورسوله؛ لأن الله يقول ﴿فَلَوْلَا﴾ بمعنى فهلا لو آمنت القرية فلا يعذبها ربها كما عذب القرى الظالم أهلها، ثم استثنى الله قوم يونس (ﷺ) من الأقوام الظالمة، فقد رفضوا نبيهم ثم آمنوا، وقال الزمخشري: [عن الفضيل بن عياض قالوا: اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت، وأنت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله].

* * *

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)﴾

كان (ﷺ) يبذل كل نفسه ليؤمن أهل مكة والعرب وكل الناس برسالته، فقال له ربه مرة: ﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢)﴾ [طه]، وقال له مرة أخرى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال له هنا: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لو شاء الله لجعل كل البشر مؤمنين كرهًا وإجبارًا، ولكن شاءت حكمته أن يجعل الدنيا دار تكليف وابتلاء للبشر، وبيده وحده الهداية، كما بيده وحده العزة والرزق والأجل، ويجعل العذاب والخذلان على من يرفضون استخدام ما وهبهم الله من فطرة وعقول وأسماع وأبصار ومدارك.

* * *

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾

قل يا محمد لهؤلاء المتكبرين الجاحدين المعاندين : تفكروا فى قدرة الخالق وما خلقه فى السماوات من كواكب ونجوم، وما خلق فى الأرض من جبال وأنهار وبحار، وانظروا إلى أنفسكم وأحوالكم، ورغم كل هذه الآيات والإنذارات فلن يتعظ الكافرون. فما ينتظرون إلا ما حل بالأقوام السابقة، فقل لهم يا محمد فلننتظر جميعًا لنرى ما سيحدث يوم الحساب ﴿ثُمَّ نُنجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن وعد الله الحق أن ينجى المؤمنين.

***

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ والخطاب لجميع الناس؛ إن ارتبتم وتشككتم فى دين الإسلام فأنا لا ولن أعبد ما تعبدون من دون الله، ولقد أمرنى ربى أن أكون من الذين آمنوا به وحده ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وأن أتوجه للدين الحنيف، فأجعل صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، ولا أكون من المشركين.

***

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾

الخطاب موجه للناس فى شخص الرسول (ﷺ)، فليحرص المؤمن إذا سأل أن يسأل الله وإذا استعان أن يستعين بالله؛ لأن من يستعين بغير الله طمعًا فى جاهه أو سلطانه أو ماله إنما يظلم نفسه؛ لأنه يشرك بالله ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ إذا أصابك مكروه فلا يملك مخلوق أن يرفعه عنك إلا إذا أراد الله ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ فلا يملك مخلوق أن يرد هذا الفضل؛ لأن الله فعالٌ لما يريد، يرزق من يشاء بغير حساب بغفرانه ورحمته، وجاء فى الحديث «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذى.

***

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ من رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾

قل يا محمد لكل الناس ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ من رَّبِّكُمْ﴾ فى رسالة الإسلام الخاتمة ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ من اهتدى، فستعود هدايته بالخير عليه، ومن ضل فعليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ لست موكلاً بإرغامكم ولا مسيطراً عليكم، إنما علىَّ البلاغ فقط، فأنا نذير وبشير ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ ثم يؤكد الله على رسوله أن يتبع الوحى، ويعزيه بما سوف يلاقيه من الناس، فعليه أن يصبر ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) ﴾

﴿ الر ﴾ ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى بداية سورة البقرة. هذا القرآن كتاب أنزله الله عليكم، وجعل آياته كالبناء المحكم الذى يؤدى الغرض منه بالتمام والكمال، لا يشوبه نقص من خلل أو ثغرة أو خوف من الانهيار، ثم فصلها وهو الحكيم الخبير بما ينفع الناس، فيأمر الله رسوله أن يبلغ الناس ألا يعبدوا إلا إياه، وهو رسوله لهم ينذرهم ويبشرهم، فإذا استغفروا ربهم وتابوا إليه، أتاهم فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، كلٌّ على قدر فضله، أما إن تولوا، فلهم عذاب يوم الحساب عندما يرجعون إلى الله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

* * *

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) ﴾

(*) نزلت سورة هود فى مكة، إلا ثلاث آيات: ١٢ـ ١٧ـ ١١٤ فقد نزلت بالمدينة.

قال الماتريدى: [أصل تثنية الصدر هو أن يضم أحد طرفى الصدر (غطاء الصدر من الملبس) إلى الطرف الآخر ليكون ما أضمر أستر وأخفى] المقصود بذلك المنافقون، ويكون المعنى: ألا إن المنافقين يطوونَ قلوبهم على الكفر والعداوة ليستخفوا من الله ومن رسوله، فأعلمهم الله ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ حين يتغطون بثيابهم، يعلم ما بداخلها كما يعلم ما بخارجها، فهو عليم بما فى صدورهم ـ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك] ـ وتبين الآية قصور فهم الناس، وما شاب فطراتهم من انحراف وزيغ.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com